في مائة عام

الصراع بين الطغيان والديموقراطية

ومحنة الديموقراطية المعاصرة

بقلم مؤرخ كبير

منذ نحو قرن ونصف كانت ريح الثورة الفرنسية الكبرى تهب على الملوكية الفرنسية ، فلما انفجر بركان الثورة بعد ذلك بنحو عامين أو ثلاثة ، سقطت الملوكية الفرنسية وكل صروحها ونظمها القديمة صرعى الفورة المضطرمة ؛ ولكن الثورة الفرنسية لم تقف عند حدود فرنسا ، ولم تقف عند سحق الملوكية الفرنسية ، ولم تلبث أن غدت ثورة عالمية تزحف لها كل العروش والنظم في أوربا القديمة ، وتتحد جيوش أوربا القديمة على مقاومتها واخمادها . ولكن جيوش أوربا القديمة ارتدت منهزمة أمام القوى المعنوية الجديدة التي تضطرم بها جيوش الثورة ؛ ولم تسحق الثورة أمام العدو الخارجي ، ولكنها سحقت في غمر من المعارك الداخلية على يد قادتها وزعمائها أنفسهم ، ولم تلبث أن استحالت إلى حركة خاتمة ذلول تحملها موجة من الطغيان العسكري لتحقيق نفس الشهوات القومية والمبادئ المطلقة التي قامت لسحقها

غير أن الثورة الفرنسية تبقى مع ذلك حركة تحرير عالمية ، بل هي من بين الثورات التحريرية الكبرى أوسعها مدى وأبعدها أثراً في تاريخ الانسانية ؛ ذلك أنها قامت في الأصل على حقوق الانسان ، وجعلت غايتها تحرير الحقوق والحريات العامة من أصفادها ، وسحق كل النظم الطاغية ، وتقديس الفرد وحقوقه ، واعتبار الدولة خادم الأمة في مجموعها ، وخادم الفرد والأمينة على حقوقه ومصالحه ؛ ولهذا كان ظفرها عظيما ، وأثرها عميقاً في بث المبادئ الديموقراطية والتحريرية في أمم أوربا القديمة ؛ ومنذ فاتحة القرن التاسع عشر نجد معظم الأمم الأوربية التي تسودها النظم المطلقة مثل روسيا القيصرية ، وامبراطورية النمسا والمجر تجيش بثورات تحريرية متوالية ، وتطالب باقامة النظم والدساتير الحرة ، ونجد الملوكيات القديمة المطلقة تجد بكل ما وسعت في قمع هذه الحركات التحريرية

وقد تجلى هذا الصراع بين الطغيان والديموقراطية على أثر سقوط نابوليون وسحق الفورة العسكرية البونابارتية التي شغلت أوربا مدى خمسة عشر عاماً ، وقامت الملوكيات الطاغية القديمة تأتمر وتتحد على قمع المبادئ والحركات التحريرية التي اتسع نطاقها وسرت إلى معظم الأمم الأوربية ، واضطرت معظم الحكومات المطلقة أن تنزل عند ضغطها ووعيدها وأن تبذل بعض المنح الدستورية ؛ وأسفرت هذه الحركة الرجعية التي نظمها ودبرها اسكندر الأول قيصر روسيا عند عقد «المحالفة المقدسة» الشهيرة بين روسيا وبروسيا والنمسا (سنة ١٨١٥) ، وكان غرضها الظاهر أن تنظم الدول الثلاث شؤونها الداخلية والخارجية طبق التعاليم المسيحية ، وأن يحكم الملوك الثلاثة بين شعوبهم بالعدل والمساواة ، وأن يقوموا بتأييد السلام ؛ ولكن كان غرضها الحقيقي أن تتعاون الملوكيات الثلاث على قمع الحركات التحريرية التي تضطرم بها أمم القارة ، وعلى تأييد الحقوق الملوكية المطلقة ، وعلى مقاومة الروح الدستورية الحقيقية واخضاعها لهوى العرش وارادته ؛ وقد انضمت معظم الدول الأوربية الأخرى إلى هذه المحالفة الشهيرة ، عدا انكلترا التي كانت تمثل النزعة الديموقراطية الخصيمة

ولكن الروح الدستورية كانت قد نفذت إلى الأعماق وحمل تيار الحركة التحريرية أمامه كل شيء ، فلم تنجح حركات القمع إلا قدر ما يؤيدها العنف ؛ وكان العنف كالعادة يغذي هذه الوثبات الشعبية ويذكيها ؛ فلم تلبث غير بعيد حتى عادت إلى الاضطرام ؛ ومنذ سنة ١٨٣٠ نرى الثورات الشعبية تنفجر هنا وهنالك في أوربا . ثم كانت سنة ١٨٤٨ ، التي يمكن أن تسمى بحق عام الثورة الديموقراطية ، ففيها سقطت الملوكية في فرنسا أمام ارادة الشعب مرة أخرى ، وقامت الجمهورية الفرنسية الثانية ؛ وفيها اضطرمت الثورات التحريرية في ألمانيا ، وفي معظم أنحاء الامبراطورية النمسوية ، وفي كثير من الدول الايطالية ، واجتاحت أوربا من أقصاها إلى أقصاها ريح تحريرية قوية اهتزت لها كل النظم الطاغية والعروش القديمة المطلقة ؛ ولم

يلبث أن لاح فجر الديموقراطية الحديثة فى الأفق قوياً ساطعاً

— ٢ —

وبلغت الديموقراطية ذروة ظفرها عقب الحرب الكبرى ، فانهارت القيصرية الروسية ، وانهارت الأمبراطورية النمسوية ، والأمبراطورية الألمانية ، والسلطنة العثمانية ؛ وقامت جمهوريات فتية ، فى روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتركيا ، وفى عدة أخر من الدول الجديدة الناشئة التى خلقتها معاهدة الصلح لأغراض عسكرية وسياسية ؛ ثم قامت الجمهورية أخيراً فى اسبانيا بعد أن سقطت ملوكيتها القديمة التالدة أمام الثورة العامة

ولكن هذا الظفر الذى أحرزته الديمقراطية عقب الحرب الكبرى كان خلبا ، ولم يقم على أسس أو روح ديمقراطية حقيقية ، بل استمد من الفوضى العامة التى أحدثتها الحرب ؛ هذا الى أن هذه الديمقراطية الظافرة لم تكن رزينة عاقلة ، بل انساقت غير بعيد الى ألوان خطرة من العنف والتطرف والفوضى . ومن جهة أخرى فقد كانت الديمقراطية قناعا للطغيان المطلق فى روسيا السوفيتية وفى تركيا . وقد أدى تطرف الديمقراطية وتفرق كلمتها ووهن جبهتها غير بعيد الى انهيار صروحها فى ايطاليا حيث قام الطغيان المطلق باسم الفاشستية ، ثم الى انهيار صروحها فى ألمانيا حيث قام الطغيان المطلق باسم الاشتراكية الوطنية ؛ وانهارت الديمقراطية أيضا فى بولونيا وفى النمسا وفى دول أخرى حيث قامت أنظمة قومية أو عسكرية طاغية بألوان وأسماء مختلفة ، وهكذا لقيت الديمقراطية فى بضعة الأعوام الأخيرة من ضروب الفشل والمحن ما لم تلقه قط فى حياتها القصيرة الظافرة ؛ والديمقراطية اليوم تناضل عن مبادئها وعن كيانها ، ولكنها تناضل فى غمر من الصعاب واليأس لأنها لا تناضل فقط أنظمة ومبادئ خصيمة ، وإنما تناضل أيضا قوى عسكرية طاغية هى التى تعمل باسم المبادئ والنظم الجديدة

غير أن الديمقراطية مازالت تحتفظ بميزتها الكبرى ، وهى أنها ما زالت تعتبر قانون الحكم العام ، وما زالت مبادئها هى المبادئ الشعبية الخالدة ، وهى المبادئ التى ترتكز اليها الحقوق والحريات العامة فى كل الأمم المتمدنة ؛ وهذا هو سر بقائها وسر قوتها ، وهذا ملاذ آمالها ومستقبلها

أما هذه النظم الطاغية التى تقوم اليوم باسم الشعب أو باسم القومية فى دول مثل روسيا وتركيا وايطاليا وألمانيا ، فهى فى الواقع نظم عنف وإرهاب محض ؛ وهى أبعد النظم عن المبادئ الحرة والمبادئ الانسانية : ذلك لأنها تمثل النزعة الفردية والحزبية قبل كل شئ ، وفى هذه النزعة الفردية الحزبية تذوب فكرة الدولة والأمة والحقوق العامة ؛ وقد قامت البلشفية فى روسيا باسم الكتلة العاملة واسم سيادتها مناقضة اسيادة الرأسمالية فى الدول الأخرى ؛ بيد أن هذه السيادة المزعومة للكتلة العاملة فى روسيا ، ليست سوى سيادة الحزب البلشفى ، بل هى فى الواقع سيادة عصبة من الزعماء والعامة يحكمون تلك الكتلة الشعبية الهائلة بوسائل العنف والارهاب . نعم تزعم البلشفية أن لها غاية عالمية هى بث مبادئ الثورة العالمية وتحطيم النظم الرأسمالية كلها ؛ وتعمل البلشفية منذ أعوام طويلة لبث مبادئها ودعايتها فى معظم أنحاء العالم ، ولكن البلشفية ما زالت وقفا على روسيا وحدها حيث تؤيدها القوة الطاغية العنيفة وحيث تتصرف حفنة من الطغاة الدمويين فى مصاير الشعب الروسى وفى عقوله وأرواحه . ولقد نسجت الفاشستية فى ايطاليا على هذا المنوال فى تمكين قبضتها من الشعب الايطالى ، مع فارق فى الأسس التى تقوم عليها فهى تقوم على فكرة السيادة القومية والعسكرية ، بيد أنها كالبلشفية سيادة حفنة من الرجال ، (بل رجل واحد) يؤيدهم حزب وجيش ، ويفرضون ارادتهم على الشعب بوسائل العنف ؛ وليس فى الفاشستية ما يميزها الا أنها من حيث التنظيم السياسى تقوم على الفكرة النقابية . وقد كانت الاشتراكية الوطنية (النازية أو الهتلرية) فى ألمانيا أحدث ألوان الطغيان المعاصر ، بيد أنها من أشدها إمعانا فى العنف وسحق الحريات والحقوق العامة ؛ وأهم مميزاتها وقواعدها الفكرة الجنسية أو فكرة السلالة والدم ؛ وهى تذهب فى تطبيق هذه النظرية التى تتخذها ستارا لغايات السياسة مذهب الاغراق المثير ، وتصدر باسمها أغرب القوانين التعسفية ، وترتكب أشنع ألوان الاضطهاد والمطاردة ؛ ومع أنها تتظاهر بأنها تطارد اليهودية فى الواقع وتعمل على سحق نفوذها العنصرى والاجتماعى فى ألمانيا ، فانها فى الحقيقة تذهب بعيدا فى تأكيد النعرة الجنسية وتتخذها مثارا لعاطفة من التعصب الجنسى والقومى الشنيع ، وهى بذلك من أخطر الحركات القومية التى تنذر بالانفجار المسلح ؛ وللاشتراكية الوطنية خاصة أخرى ، هى أنها تعمل فى التسلط على شخص الفرد وعقله وروحه ، فتسلبه كل ارادة وكل

حق فى التفكير أو التصرف المستقل ، وربما كانت فى ذلك أكثر إمعانا من البلشفية ذاتها ؛ فالفرد لا وجود له فى نظر الاشتراكية الوطنية ؛ والدولة هى كل شئ . بيد أن الدولة والحكومة والزعامة ومصدر السلطات كلها ليست سوى العصبة الهتلرية ومن ورائها القوات النازية المسلحة ؛ وهذا الامعان فى تطبيق الفكرة الحزبية لا يقتصر على الدولة والتشريع ، بل يمتد الى الاقتصاد والثقافة وكل ما هنالك مما له مساس بتكوين الفرد أو توجيهه ، سواء فى جسمه أو عقله وروحه

وكما أن البلشفية تزعم أنها حركة ومبادئ عالية لاصلاح الدولة والمجتمع ، فكذلك تزعم الفاشستية الايطالية والنازية الألمانية . بيد أن الفاشستية لم تنجح كحركة عالية ، وإن كانت قد ظهرت آثار يسيرة منها فى بعض الدول الأخرى ويمكن القول بأنها لقيت وما زالت تلقى فى جميع العالم المتمدين أشد صنوف المعارضة ، بل ما زالت رغم كل ما عملته لاصلاح شؤون ايطاليا الداخلية تثير بوسائلها عواطف الاشمئزاز والمقت ؛ كذلك الدعاية الهتلرية لم تجاوز حدود ألمانيا ، ولم تلق مزاعمها الجنسية بالأخص صدى ، وقد وصفت نزعاتها بأنها وثنية بربرية ؛ والخلاصة أن هذه الحركات الطاغية التى قامت بالعنف والارهاب وما زال يسندها العنف والارهاب بقيت حركات محلية ، ومن المحقق أن مصايرها ترتبط بمصاير زعمائها ومصاير القوى السيئة التى تسندها ، ومن المرجح أنها ستنهار عند حدوث أول انفجار عام . على أنه لا ريب أن هذا الطغيان الشامل الذى يسحق شعوبا عريقة بأسرها ، وذلك التطور المدهش فى شؤون الزعامة والحكم ، وهو تطور ترتب عليه أن تتب أحط العناصر والطبقات الى أسمى الزعامات السياسية والقومية ؛ وذلك الاستعباد المزرى لكرامة الفرد ولشخصه وعقله وروحه ؛ وتلك الوسائل البربرية لتدعيم الشهوات الحزبية والمذهبية ، وهى وسائل تذكرنا بالعصور الوسطى ؛ وتلك الأحقاد القومية والجنسية التى تثيرها أذهان متعصبة منحطة : تقول لا ريب أن هذه الخواص التى تلازم نظم الطغيان الحاضرة ، والتى هى ملاذ قوتها وحياتها ، هى فى الواقع دلائل واضحة على انحلال المدنية الغربية الحاضرة ، وعلى قرب انحدارها الى غمر جديدة من الاضطراب والفوضى

« مؤرخ »

الفلسفة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كلمة تثير فى النفس ما تثير من غموض وإبهام ، وتؤذن بشىء من الغرابة والخفاء . يقال : تفلسف فلان إذا ظن أنه يعمن فى الغريب ولا يأتى بما ألفه الناس . وقد يُرمى الفلاسفة بأنهم « يعيشون مع الملائكة » ويسبحون فى عالم الخيال ، لا يشعرون بما يشعر به من حولهم ، ولا يقيسون الأمور بما توارد عليه العرف المألوف . يقال : هذا فيلسوف ، وما لنا ولهذه الفلسفة ، إذا أريد عدُّ الحدث عنه وحديثه فى عالم النظريات حيث لا تنال الحقيقة الواقعة ما تستحق من تقدير . لذلك انتبذت الفلسفة ، وانصرف الناس عنها ، ونظروا إليها نظرة ازدراء واحتقار ، أو توجس وخيفة . فالمصريون والمتحضرون ينتقصون الفيلسوف مدعين أنه لا يعيش فى عصره ، ولا يأخذ بقسط وافر من شؤون الحياة ، والجامدون والمتأخرون يرمونه بالألحاد والزندقة والخروج على الأديان

والفلسفة فى بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النصير والأعوان ، لا تكاد تجد من يتحبب إليها ، ويأخذ بيدها ، ولا من يصورها للناس فى شكلها الواضح ومظهرها الصحيح . فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها ، ولا تقف الناس على حقائقها ؛ والجمهور يفر منها ، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من أثر فى تهذيب الأفراد والجماعات ورفع مستواهم العقلى والخلقى ؛ والخاصة يتبادلون منها أفكاراً بالية وآراء عتيقة قلّ أن تُعرض عرضاً مستقيما ، وكأن الفلسفة فى نظرهم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والعصور الحديثة أبحاث يعتد بها أو نظريات يقام لها وزن . وهناك طائفة أخرى جنت على الفلسفة جنايات شنعاء ، وزادت الناس فيها بغضاً وكراهية ، وهى جماعة أدعياء الفلسفة الذين يتهجمون عليها ، ويكتبون فيها وينشرون ، ويناقشون ويعترضون ، دون أن ينفذوا إلى صميمها ويدركوا كنهها ؛ وفى الصحف اليومية والأسبوعية من أمثلة هذه الجرأة العظيمة الشىء الكثير . وكأن العلوم الفلسفية فى هذا البلد حمى مباح ، وسلعة تعرض فى مختلف الأسواق ، ومتاع